ويشتري رغيفاً من الخبز ويأكل منهُ وهو راجع الى منزله . ولم ينكر فضل كلفني الذي هداهُ الى اكتشاف البطرية والرصيف الغلطائي بل كان يعترف بهِ دائماً . ويعدُّ اكتشافهُ للبطرية والرصيف نتيجة اكتشاف كلفني لحركات الضفدع

هذا وسيأتي الكلام على بقيَّة زعماء الكهربائيَّة في الاجزاء التالية

الاشتراكيون والفوضويون

(تابع ما قبله)

اوردنا في الجزء الماضي طرفاً من تاريخ الاشتراكيَّة والفوضويَّة وترجمات دعاتهما الاحد عشر المشهورين روبرت اون وسان سيمون وفوريه ولوي بلان وبرودون وردبرتس ولاسال وباكونين وكروبتكين وركلاز . وابنّا الاسباب الكبرى التي دعت الى ظهور الاشتراكيَّة والفوضويَّة او مهَّدت السبيل لها ووعدنا ان نبسط الكلام في هذا الجزء على تعاليم الاشتراكيين والفوضويين ونتائجها وانجازاً لذلك نقول

البدة الثالثة

في تعاليم الاشتراكيين والفوضويين

ابتدأت الاشتراكيَّة الحديثة بروبرت اون الانكليزي كما تقدم وقد اخذتهُ الشفقة على العمال وهو مدير لهم لمَّا رأى ان المخترعات الحديثة فتحت ابواب الثروة لاصحاب المعامل ولم يستفد منها العمال شيئاً بل اضرَّت بهم لانها اغنت اصحاب المعامل عن كثيرين منهم فقال لا بد من اصلاح هذا الخلل بالي اسلوب يشرك العمال في منافع المخترعات الحديثة

وكان العمال في بلاد الانكليز عبيداً اذلاَّء لا عقار لهم ولا صوت في انتخاب النوَّاب ولا نصيب من التعليم والتهذيب . يسكنون اكواخاً حقيرة قذرة ويتقاضون الاجور البخسة ويتبلَّغون من العيش تبلُّغاً . ثم كثرت الآلات واستغنى اصحاب المعامل عن كثيرين منهم او استعاضوا عنهم بالنساء والاولاد فزاد ضنكهم ضنكاً ولم يبقَ لهم شيء يتعيشون بهِ . وكان اذا اذنب احدهم يُضرَب ضرباً مبرحاً حتى يسيل الدم من بدنهِ . هذه كانت حالة العمال والفلاحين عموماً حينما ظهر روبرت اون . فحملتهُ الشفقة والمروءة

على السعي في اصلاح شأنهم بما اشار بهِ من الاساليب واخصها تعليم اولادهم وتهذيبهم وتنويع اعمالهم واشراكهم في منافع المكتشفات العلميَّة والصناعيَّة . وطعن على بعض العقائد الدينيَّة فاضعف حجتهُ واتُّهم بالالحاد فنكَّب عنهُ انصارهُ . لكنَّ مبادئهُ الاشتراكيَّة عاشت وقويت وحذا كثيرون من المصلحين حذوهُ فجروا في خطتهِ من حيث الاهتمام بالعمال والفقراء عمومًا بانين ذلك على اوامر الديانة فسمّي مذهبهم بالاشتراكيَّة المسيحيَّة وصاروا يأخذون بناصر العمال في المنابر والكنائس وفي مجلس النواب واهتمت البلاد كلها بأمرهم وهم الآن يطالبون بحقوق العمّال ويدافعون عنهم بهمة وجرأة لا مثيل لها

هذا ما كان من امر روبرت اون الانكليزي اما سان سيمون الفرنسوي فقال ان الناس كانوا فوضى يغزو بعضهم بعضًا ويغتصب القوي مال الضعيف ثم ساد عليهم التديُّن والحب والالفة وسيتسع نطاق الالفة حتى يعمَّ المسكونة . وكان غرض الناس قبلاً استعباد بعضهم بعضًا وتسخير الضعيف للقوي وسيكون غرضهم من الآن فصاعدًا المساواة والتعاضد في استخراج خيرات الارض لكنَّ هذا الغرض لا يتم لهم الاَّ بنزع حق الإرث الذي يخوّل الأقلين الاستئثار بخيرات الارض خلفًا عن سلف ويورث الاكثرين الفقر والضنك . والسبيل الى ذلك ان تستولي الحكومة على كل وسائل الكسب والإنتاج من مال وعقار وادوات وتعين لكل احد العمل الذي يستطيعهُ وتجازيهِ حسب عملهِ . ولم يعنِ بالحكومة الملك وحاشيتهُ على ما نفهم في المشرق بل الرجال الذين تنتخبهم الامة لادارة شؤونها اما الملوك والامراء فوصفهم بما وصف بهِ المعري امراء عصرهِ حيث قال

مُلَّ المقامُ فكمْ أُعاشرُ امَّةً ... أمرَت بغير صلاحها أُمراؤها
ظلموا الرعيَّة واستجازوا كيدها ... فعدَوْا مصالحها وهم أُجراؤها

واشار بان يبدل نظام الحكومة العسكري الذي كان في عصرهِ بنظام صناعي يرئسهُ كبار الصنّاع ويُبدَل النظام الديني بنظام ادبي يرئسهُ كبار الفلاسفة ويكون غرَض النظامين اصلاح حال الفقراء ادبيًا وماديًا واساسها الحب المشترك . وقد تحقَّقت بعض امانيهِ الآن فترى الاعمال الصناعيَّة الكبيرة كفتح ترعة السويس وترعة منشستر ومد سكك الحديد واسلاك التلغراف قد نابت مناب الحروب والغزوات . وترى العلماء والعقلاء مثل باستور وفكتور هيغو وغلادستون قد قاموا مقام غيرهم في اكرام الشعب لهم والانصياع لتعاليمهم

وخالفهُ فوريه الفرنسوي في تحويل الحكومة ادارة الاعمال وقال انهُ لا بدَّ من بقاء الاموال والادوات لاصحابها لكنهُ قسمهم مع سائر العمَّال الى فرَق واشار بان توزَّع المكاسب عليهم فيشترك اعضاء الامة كلهم في المأكل والمشرب والمأوى ويعمل كلٌّ منهم لخدمة الانسانيَّة بحسب ما رُزق من المواهب الخصوصيَّة . فكأن الحكومة العائلية هي المرجع حسب رأي سان سيمون والامة هي المرجع حسب رأي فوريه

وحسب كلٌّ من هؤلاء الزعماء الثلاثة انهُ اكتشف الاسلوب الوحيد لابطال المتاعب والمظالم وتعميم الراحة والرفاهة . وهو حلم حلموهُ في تلك الليالي المالكة الظلام فلما ارادوا تحقيقهُ وجدوا ان الخطب جلَّ والخرق اوسع من ان يرقع في بضع سنوات والداء اعقم من ان يداوى بما اشاروا بهِ . ويظن البعض ان الاسلوب الذي اشار بهِ لوي بلان (وهو انشاء معامل عموميَّة تكون وقفاً على الامة ويكتب عليها ان من لا يعمل فهو لص وتكون الحكومة المنتج الوحيد والموزع الوحيد) ينبي بعض المراد اذا أُعطي حقهُ من حسن الادارة

وقد تطرَّف سان سيمون في ما اشار بهِ حيث قال انهُ لا يمكن اصلاح شأن الامة الاَّ بعد استئصال حق السلطة الموروثة فان ابناء السائدين علينا الآن وصلت اليهم السيادة بالارث لا بالاستحقاق وقد يكونون من اقبح الناس سيرة وسريرة او من اضعفهم همة وعزيمة واقلهم فهماً وذكاء . وهم في الحالين ضرر محض على الذين يسودونهم فيبقى هؤلاء في الضنك والشقاء ابد الدهر ولا سبيل لازالة ذلك الا بابطال حق الارث وارجاع كل سلطة وكل مُلك الى الحكومة حالما يموت صاحب السلطة او صاحب المُلك : والحكومة تمنح السلطة لمستحقها وتوزع الملك على الذين يحتاجون اليهِ وتنيط الاعمال بالاكفاء لا غير

ويرى من يمعن النظر ان هؤلاء الزعماء لم يعرفوا حقيقة الداء ولا حقيقة الدواء تماماً ولذلك اشاروا لعلاجهِ باساليب لا يتيسَّر استعمالها ولا تأتي بالفائدة المطلوبة اذا استُعملت . وبعضها شرٌّ من الادواء التي يراد علاجها بها حتى يصحُّ فيها ما قيل

اذا استشفيتَ من داءٍ بداءٍ فاقتلُ ما اعلَّك ما شفاكا

واستقلَّ لاسال الالماني ما يأخذهُ العمال اجرة عملهم واستكثر كارل ماركس ما يربحهُ اصحاب المعامل من ثمن المصنوعات ولا سيما اذا ارهقوا العمال بزيادة الاعمال وحسب كلاهما ان ما يزيد في ثمن المصنوعات انما هو للصنَّاع لانهُ نتيجة صناعتهم وتعبهم ويجب

ان يأخذوا اكثرهُ ان لم يأخذوهُ كلهُ . وعندنا ان هذا الحكم جائر جدًّا لان صاحب المعمل الذي يشتري رطل القطن بغرشين ويبيعهُ نسيجًا بعشرة غروش لا ينفق عليهِ اجرة العامل الذي غزلهُ ونسجهُ فقط بل اجرة ما عندهُ من الآلات والادوات وربا ثمنها واجرة المعمل والمظلَّة والكتَّاب . وقد لا يبقى لهُ من الثمانية الغروش الَّتي زادت في ثمن الرطل الاَّ ربع غرش او اقل من ذلك . ولا مراء في ان جملة ما يكسبهُ تزيد على اجرة عشرة عمال اذا كان من اهل الدراية والمهارة في ادارة الاعمال ولكنهُ اذا لم يكن كذلك خسر امواله كلها . وما من احد كسب مالاً وافرًا من الصناعة الاَّ اذا اظهر من المهارة والدربة ما لا يستطيعهُ غيرهُ من الذين قصَّروا عنهُ . ولا يلام على كسبهِ كما لا يلام الشاعر اذا نبغ في الشعر اكثر من اترابهِ والعالم اذا فاق جميع الذين طلبوا العلم معهُ . ولكن اذا كسب صاحب المعمل المال اختلاسًا فللوازع حق عليهِ وهو المطالب بردهِ . والظاهر ان الاشتراكيين غضُّوا الطرف اولاً عن هذه الامور فلم يفلحوا كثيرًا مع ميل الجمهور الى نصرة كل جديد ولو كان مخالفًا للحق ولا سيما في بلاد فرنسا حيث يرمي الناس انفسهم في الماء خوفًا من البلل كما قال فيهم احد وزرائهم

الاَّ ان ردبرتس الالماني لم يشطَّ كما شط لاسال وماركس بل اشار بان تصلح شؤون الجمهور رويدًا رويدًا وطلب ان تكون الحكومة نفسها ناشرة لمبادىء الاشتراكيَّة وان يكون امبراطور المانيا نفسهُ زعيمًا لها وان يبقى لاصحاب الاملاك والاموال ما يملكونهُ الآن من المال والعقار وما ينالهم الآن من الربح لكن اذا زاد ربحهم على ذلك تعطى الزيادة للعمال لا لهم . وطلب من الحكومة ان تعيِّن ايام العمل وساعاتهِ كما تقدَّم وان تحدِّد الاجور وتتعهد العامل مرةً بعد اُخرى وتزيد الاجور او تنقصها حسب مقتضى الحال

ويظهر اعتدال الاشتراكيين الآن من المطالب الَّتي طلبها احد رجالهم المسيو ميلرند في خطبة خطبها حديثًا بفرنسا قال فيها " اننا نطلب تحسين حالة العمال وتحديد ساعات العمل واشتراك العمال في جانب من ارباح اصحاب المعامل وتعيين معاش للعمال المسنين والمرضى وتحديد اعمال النساء والاولاد ومراقبتها " . ومن المطالب الَّتي طلبها اشتراكي آخر في كتاب نشرهُ حديثًا وهي ان تسعى الحكومة في نشر التعليم المجاني ومراقبة التدابير الصحيَّة حتى يكون الماء والهواء نقيين دوامًا . وفي ابطال حانات السكر ومنع الاتجار بالمسكرات وفي تحديد ساعات العمل حتى لا يضطر احد من العمال ان يعمل فوق طاقتهِ

وفي ابطال الحرب وفصل الخصومات ٱلَّتي تقع بين الممالك بالتحكيم وفي تسليم جميع الاعمال العامة للحكومة كالبريد والتلغراف وسكك الحديد والتنوير . وفي تحديد مقدار الارض ٱلَّتي يحق للانسان ان يمتلكها

وهذه المطالب عادلة جدًّا حسب الظاهر وقد سلمت حكومة فرنسا باكثر منها فلم تفلح بل زادت الشر شرًّا فانها سنَّت قانونًا في اواخر سنة ١٨٩٢ قضت بهِ على اصحاب المعامل ان لا يشغلوا الاحداث الذين سنهم من ١٦ سنة الى ١٨ اكثر من عشر ساعات في اليوم والذين سنهم من ١٨ سنة فصاعدًا اكثر من احدى عشرة ساعة في اليوم . فصار الشبان والصبايا الذين سنهم من ١٦ الى ١٨ يُصرَفون من المعامل قبل والديهم بساعة يذهبون فيها لارتكاب المعاصي والمآثم . وقضت ايضًا على الطباخين ان يصرفوا صنَّاعهم يومًا كاملاً من كل اسبوع وعند هؤلاء الطباخين في باريس ثلاثة آلاف صانع وهم منقطعون في الغالب لا اهل لهم ولا اقارب فتضطرهم الحكومة ان " يتشرَّدوا " يومًا كاملاً من كل اسبوع وتملأ السجون بهم

قال الوزير غيوت في مقالة نشرها حديثًا " ان كل ما نتج وما سينتج من مطالب الاشتراكيين في فرنسا هو منع النساء من العمل لكي يستأثر الرجال بالاعمال وحدهم". وقال ايضًا" ان بعض الثواب طلبوا ان تنقص ساعات العمل فتصير ثلاثًا فقط كل يوم لكي يكسبوا اصوات العمال في الانتخابات. وان في فرنسا ١٢٠٠ منجم رخصت الحكومة باستخراج الفحم والمعادن منها لكن ٨٠٠ منجم منها لا يستخرج منها شيء الآن لان نفقات الاستخراج اكثر من ثمن ما يستخرج . والاربع مئة الباقية نصفها منهُ ربح ونصفها لا ربح منهُ ولا خسارة ومع ذلك يعتصب عمالها مرةً بعد أُخرى لكي تزداد اجورهم بتحريض المحرضين لهم على الاعتصاب . وان المراد من جعل ادارة سكك الحديد بيد الحكومة ان تزاد اجور المستخدمين فيها وتؤخذ الزيادة من جمهور الاهالي لانها تضاف الى النفقات العامة . وأظهرُ نتيجة من نتائج الاشتراكيَّة في فرنسا طرد العمَّال الاجانب منها فهي تدَّعي الاشتراك وتطلب المقاطعة ونتيجتها الاخيرة جعل الناس عبيدًا للحكومة "

هذا ما قالهُ الوزير الفرنسوي منذ بضعة اشهر لكننا لا نعزي الاشتراكيَّة من كل نفع ولا سيما بعد ان اعتدل دعاتها في مطالبهم كما سيجيء في الكلام على نتائجها

اما الفوضويون فهم غلاة الاشتراكيين المنكرون لكل سلطة وحق. ونعيد هنا ما قلناهُ فيهم منذ بضع عشرة سنة في المجلد الثالث من المقتطف لانهم لم يغيروا شيئًا من مبادئهم

حتى الساعة . وهو انهم يزعمون ان ثوب هذا الموجود قد رثَّ وبلي مما دُعك بالاثم وصبغ بالظلم حتى لا يحتمل ان يرقَّع بالصلاح ولا ينتج منهُ الا الشر كيف انقلب ما زال محوكًا على هذا المنوال . فلا يؤمّلون للناس خيرًا الا باعدامهِ وملاشاة ما طُرِّز فيهِ من دين وشريعة ودولة وعائلة وقنية وحلال وحرام حتى لا يبقى شيء منها . ولذلك تراهم يسعون في هدم القائم وملاشاة الموجود ولا يهتمون لبناء ما يهدمون ولا تجديد ما يعدمون بل يتركونهُ لمن يخلفهم من الاجيال المستنيرة الاذهان المحرَّرة من ربقة التقليد الآمنة من العقاب والوعيد

فهذه خلاصة تعاليمهم الوخيمة وهاك على اثبات كلامنا ما قالهُ ميخائيل باكونين الروسي مؤسس هذا الحزب في خطاب خطبهُ بجنيفا سنة ١٨٦٨ وهو

" علينا ان ننزع الكذب من العالم ونزرع الصدق مكانهُ فلنبتدئ في الامور من اولها . ان اول الاكاذيب الَّتي ذلَّلت اعناق الناس تحت نير العبوديَّة الاعتقاد بالله (نستغفر الله) فقد رسَّخ الملوك والكهنة في اذهان الناس من قديم الزمان ان الله متسلِّط على العالم ثم مؤهوا عليهم واختلقوا لهم عالمًا آخر فيهِ يُعاقب الله عقابًا ابديًّا كل من لم يطع شرائعهم على الارض . فالله هذا قد اختُلق ليذلِّل تسعة اعشار الناس وليمكِّن على اعناقهم نير العشر الباقي (تعالى الله علوًّا كبيرًا عمَّا يقولهُ الكافرون) فلو وُجد لرمى بصواعقهِ العروش الَّتي قد قيدت الناس اليها ودهده المذابح الَّتي تستر الحق بدخان بخورها

وثانية الاكاذيب الحقوق فهذه اختلقها ذوو القوة ليصونوا بها قوتهم . يوصون بمراعاتها وهم اوَّل من يتعدَّاها وانما اقاموها حصنًا حصينًا دون من يبغي منازعتهم في سلطانهم من الناس الجهلاء الضعفاء . كان الاولى ان تجعل تلك القوة بيد الاكثرين التسعة الاعشار الذين تصرَّفت في قوَّتهم آلات المكر والدهاء فاستخدمتها للعشر الباقي . وذلك كلهُ باختلاق الحقوق الَّتي اعتدتم ان تحنوا لها رؤوسكم صاغرين . فاذا عرفتم قوَّتكم لحتم هذه الحقوق من اذهانكم . . . . وحينئذ تقطع عن اعناقكم القيود المستمَدَّة علمًا وتملُّكًا وتملكًا وزيجة وحلالاً وحرامًا وعدلاً كما تقطع الخيوط الواهية "

وقال في خطبة أُخرى القاها بمدينة برن " اني لاكرهُ تعاليم الاشتراكيين فهي انكار الحريَّة . واشد الويلات عليَّ ان اري انسانًا محرومًا من حريته . واني لاناقض تعاليمهم فانها تجعل كل الاملاك والاموال في يد فئة من الجمهور او في يد الحكومة فهنشني بابادة الفريقين والغاء شريعة الوراثة الَّتي سنَّها الحكام طبقًا لغاياتهم "

وقال زعيم آخر من زعمائهم في خطبة لهُ " ان الدماء التي نسفكها والنيران التي نشبها لم نقصد منها الانتقام لبغض شخصي بل كل قصدنا ان ننزع مهابة الملوك من نفوس الناس لان الناس اذا رأونا نهجم على القيصر واعوانهِ تنحل صولتهُ من قلوبهم فتمحي مهابتهُ من نفوسهم على تمادي الايام "

وسنة ١٨٧٦ قبضت حكومة بروسيا على تعاليم مرسلة الى الفوضويين في روسيا فوجدت من جملة ما فيها ما نصهُ " تحرَّوا في كل اعمالكم قتل الذين يعود علينا قتلهم بالنفع العظيم وخصُّوا من هؤلاء من كان اشد ضررًا لعصبتنا ومن اذا قُتل بغتة ارعب الحكومة وحلَّ عزائمها وزعزع اركان قوتها بقطع الناقي العقول العالي الهمة من خدمتها "

وزار مكاتب المقطم الباريسي المسيو ركاياز من زعماء الفوضويين في غرة هذا العام وسألهُ عن رأيهِ فقال لهُ ما تعريبهُ " اننا سائرون في خطة النجاح والفوضى هي المستقبل الذي تصبو اليهِ النفوس واليهِ مصير المدنيَّة لان الانسان اذا تثقف وبلغ ما تقضي بهِ المدنيَّة من الارتقاء لا يبقى بعد ذلك من حاجة بهِ الى الحكومات ولا الى القوانين. والفوضى غاية ما تصل اليهِ العدالة المطلقة فاذا بلغنا تلك الغاية انتفت اسباب الخصام ولم يبقَ داعٍ للجرائم اذ لا جريمة الَّا والباعث عليها حاجة في نفس مقترفها فاذا بلغ كلٌّ حاجتهُ فليس ما يدعوهُ الى الاعتداء على سواهُ "

وجملة القول ان الغاية القصوى التي يتوخاها الفوضويون هي ان يتثقف العقل ويتحرَّر من كل القيود والشرائع التي تخالف الحريَّة الشخصيَّة ويصير هو شريعة لنفسهِ . ومعلوم ان هذه هي غاية الديانة والفلسفة ولكنهما تحسبان ان البلوغ اليها انما يكون باتباع الآداب والفضائل والشرائع المسنونة للهيئة الاجتماعيَّة اما الفوضويون فيزعمون انهُ لا يمكن البلوغ الى هذه الغاية الا باستئصال هذه الآداب والفضائل والشرائع الموضوعة والاعتماد على ارشاد العقل وحدهُ وكأنهم ينطقون بلسان ابي العلاء حيث قال

يرتجي الناسُ ان يقومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساء
كذبَ الظنُّ لا امامَ سوى العـ ـقلِ مشيرًا في صبحهِ والمساء
انما هذه المذاهبُ اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

لكنهم لم يفلحوا كما يدَّعون لانهم خالفوا الطبع والوضع وخرقوا إجماع الناس ولذلك بقيت عصبتهم قليلة العدَد ولم ينضمَّ اليهم الَّا النزر القليل من اهل العرفان . وسيأتي الكلام على نتائج الاشتراكيَّة والفوضويَّة في الجزء التالي ان شاء الله